

# مجلة علم النفس

مجلد ٨

أكتوبر ١٩٥٢ - يناير ١٩٥٣

عدد ٢

## علم النفس في خدمة الإنتاج القومي

بقلم

الدكتور يوسف مراد

حاول العلماء تعريف الحياة كما حاولوا تعريف الحركة فلم يفلحوا لا لعجز اللغة عن التعبير فحسب بل لأن التعريف يجب أن يركز في بدء حركته على حقائق أولية يشعر بها العقل قبل أن يتعللها ومن هذه الحقائق الحياة والحركة والتطور وهي حقائق أولية لأنها لا ترجع إلى شيء سواها بل كل ما هو في الوجود يرجع إليها . غير أن هناك مراتب في الحركة فحركة الكائنات الحية تمتاز بخصائص جديدة لا توجد في حركة الأجسام غير الحية وإن كان في قدرة التأمل الفلسفي أن يكشف عن المعالم التخطيطية لحركة الأحياء مرتسمة بطريقة رمزية في حركة غير الأحياء ، ثم هناك الحركة الصادرة عن قوة العقل ومن أهم مميزاتها أنها موجهة نحو هدف يختاره الشخص بعد تفكير متزه عن الأهواء يعتمد في وثبته وحركته على إرادة حرة وشغور حتى . وفي قدرة التفكير الفلسفي أن يكشف عن المعالم التخطيطية لنشاط العقل وحركة التفكير مرتسمة بطريقة رمزية في نشاط الكائنات الحية .

وإذا أردنا أن تتمثل الحركة الحية في أشمل صورة في صورها فإنها تبدو لنا أنها بمثابة كفاح مستمر يقوم بوظيفتين أساسيتين : المقاومة أولاً ثم البناء والخلق ثانياً ؛ مقاومة العوامل التي تهدد التوازن الديناميكي الذي يمتاز به الكائن الحي أي مقاومة عوامل الفساد والانحلال والموت ؛ ثم السعي نحو البناء بخلق صور جديدة من النشاط .

والحياة النفسية والحياة الاجتماعية. في صورها السوية تمتاز كل منها بهذا اللون من الكفاح ، مقاومة ثم بناء وخلق وذلك خلال مراحل تطورية خاصة مؤدية إلى التكامل بعد اجتياز أزمات تخرج منها الشخصية كما تخرج منها الأنظمة الاجتماعية أكثر نضجاً وأوفر قدرة على العمل المنظم المتحد في هدفه وبالتالي على العمل المنتج الذي يزيد الشخصية كما يزيد المجتمع ثراء وقوة وسعادة .

وتجتاز الأمة المصرية الآن مرحلة حاسمة من مراحل تطورها وتقدمها ، فهى تعاني أزمة شبيهة بالأزمات النفسية التي تخرج منها الشخصية أكثر اتزاناً وتكاملاً وذلك بفضل اصطدامها بالواقع وما يترتب عليه من زيادة تركيز الشعور على نفسه والكشف عما تتضمنه النفس من قدرات جديدة وخاصة من قدرة على التفكير وعلى القيام بأفعال إرادية حرة ، وقد بين علماء التحليل النفسى كيف ترتقى الشخصية عندما يخضع الفرد مبدأ اللذة لمبدأ الواقع وعندما يأخذ الأنا الأعلى يتكون مع توفير جميع العوامل التي تدعم قوة الذات الشاعرة وتجعلها قادرة على أن توفق بين الحوافز الاندفاعية اللاشعورية وبين الضوابط الصادرة من الأنا الأعلى .

فالأمة المصرية بفضل الحركة الحكيمة التي قام بها جيشها ، تمر بأزمة نفسية واجتماعية ستسمح لها بعد اجتيازها بنجاح بأن تدرك بوضوح كل ما يتضمنه أفرادها من قدرات وإمكانات على البناء والخلق والعمل المثمر وبأن تعيد تنظيم سلم القيم بحيث تخضع القيم المادية والاقتصادية للقيم الفكرية والروحية كما يتعلم الطفل إنكار الذات والتغلب على نزواته وعلى دوافع اللذة والمتعة الحسية وتمثيل الأهداف الراقية التي يعينها الواقع في صوره الأخلاقية والاجتماعية والروحية .

وتمتاز حركة الجيش المصرى بطابع خاص قلما نجد ما يماثله في الحركات التي توصف بالثورة أو بالإصلاح إذ أنها جمعت في حركة واحدة وفي آن واحد بين وظيفتي الكفاح وهما مقاومة عوامل الفساد والانحلال والموت ثم وظيفة البناء والخلق . وذلك لأنها استلهمت القوانين التي تهيم على كل تطور سوى للكائن الحى وهى القوانين التي تبرز ما يتصف به الكائن الحى في نموه من وحدة وتكامل بين مختلف وظائفه . وإن كان تحقيق التكامل الاجتماعى أعسر تحقيقاً من التكامل النفسى فإنه هو الخطة الوحيدة التي يجب أن يسير عليها المصلح الاجتماعى .

وتعريف عملية التكامل كفيل وحده بأن يرسم لنا خطة الإصلاح . وليسمح لى القارئ بأن أذكر هنا ما سبق أن نشرته في عدد فبراير ١٩٤٧ من هذه المجلة صفحة

٤٢٨ : ينطبق معنى التكامل على كل « نظام يقوم على تنسيق مقومات جزئية أو على تآزر أعضاء لتأدية مجموعة من الأفعال ترمى إلى حفظ هذا النظام وتنميته وفقاً لنموذج معين . فعنى التكامل يتضمن معان مختلفة منها الأجزاء ثم الصلة بين الأجزاء ثم الصلة المنظمة بين الأجزاء ثم التنظيم الديناميكي وأخيراً تأدية وظائف وفقاً لنموذج معين . وأعتقد أن النقطة الأخيرة ( وهى تأدية وظائف وتحقيق غرض ) هى النقطة الأساسية التى تميز التكامل عن سواه من أنواع التنظيم . »

\* \* \*

أعلنت الأمة عزمها على تنظيم العمل وزيادة الإنتاج ، ويقتضى هذا البرنامج الذى يرمى إلى استغلال الثروة القومية تعبئة جميع القوى والجهود ، وأول مقوم للثروة القومية هو العمل ، عمل المزارع والصانع والتاجر الذين ينتجون ، وعمل العلماء والفنيين على اختلاف فروع تخصصهم وهم الذين ينظمون العمل والإنتاج . ويجب أن يشمل التنظيم المجموعة الموحدة التى تكون نواة العملية الإنتاجية وتتكون هذه المجموعة من العامل وآلته والمادة الخام التى يعالجها . ومن وظيفة المهندس القيام بتنظيم هذه المجموعة الثلاثية . وقد تركزت العناية فى بادىء الأمر فى دراسة الآلة والمادة وجاء العامل فى المرتبة الأخيرة ولم ينظر إليه إلا بوصفه آلة تقوم فيها العضلات بوظيفة المحرك وأهم الجانب الاجتماعى إلى حد كبير والجانب النفسى إلى حد أكبر .

ثم فطن رجال الأعمال والصناعة إلى ضرورة العناية بالعوامل النفسية ومدى تأثيرها فى الإنتاج فنشأ علم تطبيقى جديد هو الهندسة البشرية وأنشئت المعاهد الخاصة لتخريج مهندسين بشريين يركزون اهتمامهم فى دراسة تكييف العامل لمهنته وتكييف المهنة للعامل مع مراعاة الشروط الاجتماعية التى تحيط بالعمل والعمال . والهندسة البشرية human engineering تسمية جديدة لعلم النفس التطبيقى Psychotechnique وميزة هذه التسمية أنها تشير إلى ضرورة التنسيق بين مختلف العلوم التى تتناول طبيعة الإنسان وقوانين نشاطه فى مختلف الميادين التى يشترك فيها . فالهندسة البشرية تعتمد على علم النفس التجريبي والفسولوجى ، وعلم النفس الديناميكي الذى يهتم خاصة بدراسة دوافع السلوك وعلم النفس الاجتماعى وسيكولوجية الفوارق الفردية وعلم النفس المرضى والإكلينيكي وبعض الدراسات الاجتماعية الخاصة بشئون العمال ، والتشريعات العمالية ودراسات أخرى خاصة بتكوين

الآلات الميكانيكية وتنظيم المصانع وإحصاء الاختصاصات المهنية من مدينة وعسكرية وتحليل العمل والحركات التي يتطلبها أداءه .

وقد اتسع نطاق الهندسة البشرية في الولايات المتحدة الأمريكية وفي الأمم الأوروبية الكبرى فأنشئت فيها المعامل السيكولوجية التطبيقية ومعاهد التوجيه والاختيار المهني والعيادات السيكولوجية في المدارس والمصانع والمستشفيات . ولم يقتصر التطبيق السيكولوجي على المدارس والمصانع بل شمل أيضاً المؤسسات التجارية والوظائف الكتابية والمهن الحرة والإذاعة والدعاية وسائر وسائل رفع الروح المعنوية في السلم والحرب . فأصبح علم النفس بفرعيه النظرى والتطبيقي يدرس في كليات الطب والتجارة والهندسة والحقوق . ولكي نكون فكرة سريعة عن مدى انتشار التطبيقات السيكولوجية يكفيننا الآن أن نلقى نظرة سريعة على أعمال المؤتمر الدولي التاسع لعلم النفس التطبيقي الذي عقد في سبتمبر ١٩٤٩ في برن عاصمة سويسرا واشترك فيه ممثلو ١٩ دولة وألقيت فيه مائة وثلاثون بحثاً تناولت الموضوعات الآتية :

- ١ - دور علم النفس التطبيقي في الحياة الاجتماعية والسياسية
- ٢ - دراسة الشخصية بواسطة الاختبارات
- ٣ - الاختبارات وميادين تطبيقها
- ٤ - التدريب المهني
- ٥ - سيكولوجية العمل الإنساني من الوجهة الاجتماعية والفنية
- ٦ - قيمة التطبيقات السيكولوجية
- ٧ - التوجيه المهني
- ٨ - التحليل الرياضي للعوامل المهنية
- ٩ - اختيار الطيارين
- ١٠ - التطبيقات السيكولوجية في المدارس والجامعات
- ١١ - علم النفس التطبيقي ووسائل التعليم السمعية والبصرية
- ١٢ - سيكولوجية ذوى العاهات

ومما يسترعى النظر هو تضافر جهد الأطباء وعلماء النفس والاجتماع في معالجة مختلف المشاكل التي تتضمنها دائرة العمل والمهنة وفي البحث عن أنجع الوسائل لتحقيق توازن الشخصية وزيادة فاعليتها ولتنظيم النشاط الاجتماعي في جو من التفاهم والتضامن .

\* \* \*

ويجدر بنا أن نسترشد بما حققته الهندسة البشرية في الدول الغربية لوضع المعالم الأولى لبرنامج شامل للتطبيقات السيكولوجية في مصر .

ولا بد في بادئ الأمر أن نذكر بعض الحقائق الأولية التي ستوجهنا في تحديد مجال هذه التطبيقات وتعيين شروط نجاحها . وذلك في النقاط الأربع الآتية :

١ - لا يختلف مجال علم النفس التطبيقي عن مجال النشاط الإنساني ، سواء اتخذ هذا النشاط صورة النمو أو اللعب أو التعلم أو العمل والإنتاج أو علاقة الأفراد بعضهم ببعض والتأثير المتبادل بينهم أو بين الجماعات التي ينتمون إليها . وعلى ذلك يتكون مجال التطبيقات السيكولوجية من الأسرة والمدرسة والحيش ومحل العمل من حقل أو متجر أو مصنع أو مكتب أو دار للإذاعة أو الصحافة أو النشر ؛ والعيادات والمستشفيات والملاجيء والمحاكم والإصلاحيات والسجون والأندية والشارع ، أي كل مجال لنشاط الإنسان منذ ولادته (١) .

٢ - بينما كانت المناقشات تدور بين مدارس علم النفس المختلفة أخذ بعض علماء النفس منذ أوائل هذا القرن يعملون في الميدان العملي بوضع الاختبارات لقياس القدرات العامة والخاصة ومؤمنين بأن أحسن وسيلة لمعرفة مدى صلاحية آلة من الآلات الخاصة هو الشروع في استخدامها للكشف عن عيوبها وإدخال التحسينات عليها . والنتائج الباهرة التي وصل إليها علم النفس التطبيقي اليوم تؤيد هذا التفاؤل الجميل الذي كان يقوى عزيمة مؤسسى هذا العلم أمثال بينيه ولاهى وبيرون في فرنسا

(١) راجع بهذا الصدد الكتب الآتية :

- J. Stanley Gray & others: Psychology in Use. American Book Company, New York, 1941, Pp. 663.  
 —: Psychology in Human Affairs. McGraw Hill, New York, 1946, Pp. 646.  
 J.P. Guilford & others: Fields of Psychology, Basic and Applied. 2ed. Van Nostrand Cy, New York, 1950. Pp. 779.  
 La Psychotechnique dans le Monde Moderne. Compte rendu du IXe. Congrès Intern. de Psychotechnique, Berne, 12-17 Septembre 1949 Presses Universitaires de France-Paris, 1952. Pp. 630.  
 W.G. Varnum: Psychology in Everyday life: 2d. ed. McGraw Hill, New York, 1942. Pp. 490.

وبيزولي وجملى في إيطاليا وشترن وللمان ومونستربرج في ألمانيا وديكرولي في بلجيكا وكلاباريد وبوفيه في سويسرا ومايرز واسبيرمان في إنجلترا وميرا في أسبانيا وروسوليمو في روسيا وجلبرث وترمان وودورث وثرستون في أمريكا .

وهذا التضافر الدولي في تنمية علم النفس التطبيقي وخاصة طرق التوجيه والاختيار المهني أكبر دليل على حيوية هذا العلم وأقوى كفيل بتقدمه ونجاحه . فقد أنشئ في بلجيكا في عام ١٩٠٨ أول مكتب للتوجيه المهني بإشراف الطبيب المرابي ديكرولي وفي عام ١٩١٨ أنشأ كلاباريد في جنيف أول معهد للبحوث السيكولوجية التطبيقية وانعقد في جنيف عام ١٩٢٠ أول مؤتمر دولي لعلم النفس التطبيقي .

ثم توالى المؤتمرات حتى المؤتمر الدولي التاسع الذي انعقد في برن عاصمة سويسرا سنة ١٩٤٩ والذي سبقته الإشارة إلى البحوث التي أقيمت فيه .

فقد أصبح من عبث القول التساؤل عن قيمة الاختبارات والتطبيقات السيكولوجية فهي الآن جديرة بكل ثقتنا ومواصلة استخدامها كفيل بتنميتها وتحسينها . فما علينا في مصر إلا أن نستأنف العمل الذي بدأه الأستاذ إسماعيل القباني وزملاؤه في معهد التربية وأن نتوسع في وضع الاختبارات على مختلف أنواعها بحيث تلائم البيئة المصرية وتساعدنا على مواجهة المشكلات الخاصة بمجتمعنا .

ويسرنا أن نذكر هنا أن إدارة الجيش المصري وهي حريصة كل الحرص على الأخذ بجميع وسائل النهضة العسكرية أنشأت منذ شهرين قسم الخدمة السيكولوجية العسكرية وقد بدأ هذا القسم عمله بتطبيق بعض اختبارات الذكاء والشخصية على طلبة الكلية الحربية المستجدين وهو يشرع الآن في تأسيس المعمل لاختبار السواقين والطيارين ورجال سلاح المدفعية والإشارة إلخ .

٣ - غير أنه يجب الإشارة إلى أن حركة التطبيقات السيكولوجية في مصر لا تزال في المهد . ولكي تنشط وتنمو لا بد من أمرين أساسيين الأول إنشاء معهد خاص للتطبيقات السيكولوجية لتخريج مهندسين بشريين فالبلاد في حاجة إلى مئات من السيكولوجيين العمليين يجمعون بين الثقافة السيكولوجية والاجتماعية والفنية أما الأمر الثاني فهو ضرورة القيام بدراسة اجتماعية إحصائية منظمة لجميع أوجه النشاط في البلاد ، ويجب أن تكون هذه الدراسة حرة جريئة مخلصه ، خاصة عند ما تتناول مختلف المهن والطبقات والتيارات الفكرية والاتجاهات العاطفية التي تتفاعل وتتصارع داخل المجتمعات الفرعية التي تكون المجتمع المصري بأكمله . ولتحقيق هذه

الخطوة الأساسية يجب تخريج بحاثة اجتماعيين تدرّبوا على البحث الاجتماعي خارج جدران المعاهد والجامعات ، بل في القرى والمصانع والشوارع حيث تتجسّم الحقائق النفسية والاجتماعية ، وتنشأ العلاقات الإنسانية التي تزيد الباحث العلمي استبصاراً وتغذى تفكيره بمادة واقعية حية . فقد سئمت البلاد الكلام ثم الكلام حول المناهج والنظريات ، فالمنهج لا يمكن أن يصقل إلا بالشروع بتنفيذه أما النظرية فيجب أن تتطور وأن تتجدد وأن تكون دائماً وليدة الملاحظات والتجارب والاصطدام بالواقع المتعدد الوجوه المتشابهة العوامل .

وحبذا لو أنشئ بجانب معهد التطبيقات السيكولوجية معهد آخر لدراسة الرأي العام على أسس علمية إحصائية وكدت أقول عضلية إذ لا بد هنا كما في سائر البحوث الاجتماعية نزول الطالب والباحث والعالم إلى الميادين الخارجية والإقامة في الأجواء الاجتماعية المختلفة والاختلاط بالأشخاص لمشاركتهم أفراحهم وآمالهم وسائر حركاتهم النفسية .

٤ — وما سبق يمهّد لنا التحدث عن النقطة الرابعة والأخيرة .

هاجنا في الفقرة السابقة الإسراف في المناقشات النظرية ودعونا إلى العمل . غير أن العمل الإنساني الحق ، العمل الذي يرضى بطريقة منظمة منسجمة جميع حاجات الانسان ونزعاته النفسية حتى الروحية منها ، يجب أن يكون عملاً موجهاً يرمى إلى غاية يتفق الجميع على أنها أسمى الغايات للمجتمع الإنساني ، ويستند إلى نظرة فكرية شاملة إلى الإنسان وإلى الكون ، إلى الإنسان في طبيعته ومصيره .

وهناك نظريتان متطرفتان وبالتالي خاطئتان ، لتفسير صلة الأفراد بالمجتمع . النظرية التي تقول بأن المجتمع هو الذي يكون الفرد تكويناً كلياً . ويمنحه كل ما يعين إنسانيته وهي نظرية دوركهميم المستلهمة من بعض فلاسفة الألمان والتي تطبقها الأنظمة السياسية الدكتاتورية . والنظرية التي تفسر المجتمع على أساس علم النفس الفردي وتذهب إلى أن الفرد هو الذي يشكل المجتمع لا العكس ، ومثل هذه النظرية إذا طبقت لا بد وأن تؤدي إلى الفوضى . الواقع إن المجتمعات والأفراد تكون وحدة معقدة التركيب تتبادل فيها التأثيرات بحيث تؤدي إلى ازدهار شخصية الأفراد وضمان حرياتهم داخل نظام قائم على الإخاء والمحبة .

وفي وسع علم النفس التطبيقى أن يساهم مع غيره من العلوم في تحقيق هذه الغاية . فليس غرضه خدمة فئة على حساب فئة أخرى وتحويل الإنسانية إلى نظام آلى

لأكبر إنتاج ممكن على حساب القيم الزوجية ، بل غرضه تحقيق العدالة الاجتماعية وسعادة الأفراد والمجتمعات وجعل الشخصية محور النشاط مهما كان هذا النشاط متواضعاً . فالمهندس البشرى الشاعر بقدسية رسالته يعمل دائماً وهو مدفوع باحترامه العميق نحو الشخصية الإنسانية التي تتميز بالفكر والحرية والقيم الروحية السامية التي تتوق الإنسانية الجاهدة نحو تحقيقها بإيمان وإخلاص .

يوسف مراد